٣ ـ نهضة المرأة المصرية

وكيف توجه للخير العام

للأستاذ فليكس فارس

من هذا الموقف دفعت الانسانية فى الغرب أوائل خطواتها على سبيل المدنية الحديثة ، فكان التمرد على النظم القديمة البالية ، وكانت الثورات التى خضبت الأرض بدماء الأسياد والعبيد ، بدماء الظالمين والمظلومين ، بدماء الأبرياء والمجرمين ، نجيعاً واحداً رقص الشعب فوقه صاخباً باكياً ضاحكا فى سكرة الأمانى المحطمة والآلام المخدرة

من مثل موقف الرومان ومن مثل موقف العرب حين سادت الخرافات بين الشعوب خرجت أوروبا الى عهدها الجديد ، ولكن عيسى لم يكن هاديها ، ولا كان محمد ماشياً فى طليعتها . كان إنجيل الغرب حقوق الانسان التى كتبها الثائرون بالدم المتمرد ، وكان قرآنها القوانين التى سنها نابليون لإقامة الموازنة بين الحقوق ، ولكن هذا الانجيل الحديث الذى استمد من إنجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من مبادئ الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة ، وهذا القرآن الجديد : قوانين نابليون المستمدة من مذاهب الأئمة فى الشرع الاسلامى وقف عند حد التنظيم المادى لحقوق الناس ، فقصر عن الأخذ بما فى قرآن النبى الهادى من الدعوة الى المعروف والبر بالادنين والأبعدين من بنى الانسان

رأت بلاد الغرب أن الدين قد أصبح سلطة تواطأت طويلاً مع السلطان المدنى المطلق وما حوله من سادات الاقطاع ، وامتنع عليها أن تسلخ إنجيل عيسى عن هذه السلطة فأنكرتها وأنكرت عيسى وتعاليمه معها . وسارت المدنية الحديثة فى طريقها مستنيرة بالعلم الوضعى منكرة كل ما لا تقع الحواس عليه ، فأصبحت القوة وحدها المسيطر الأعلى تنبسط قاعدة رهيبة للعجل الذهبى فتمده باعتلائها ويمده بلمعانه وصولته

وبقيت المسيحية دين الغرب ، ولكنها حصرت فى كنائسه وانكمشت مبادئها عن الحياة نفسها ، وبينما كانت تتلى فى المعابد كل يوم الآيات التى هبطت على جبل فلسطين فهزت الدنيا وقلبت المدنيات القديمة ، وتتلى بعدها رسائل الحواريين التى كتبت فى السجون لتحرير الانسان ، كانت مدنية روما الوثنية تنبعث من كل جانب لتدور حول الكنائس مقهقهة ساخرة

كان العذارى يخرجن من الكنائس بعد سماعهن قول بولس الرسول بالتستر وحجب الشعور والاحتشام والطاعة للقيمين ، فيذهبن الى المراقص نصف عاريات كأنهن الدمى الرومانية نفخ إبليس فيهن نسمة الحياة

إن غريزة المرأة فى الأصل لا تطمح إلا الى الطريق الذى اختطه لها الناموس الطبيعى فى تكوينها ، وما أحبت امرأة رجلا إلا وكانت محبتها خيالاً سابقاً لمحبة الطفل الكامنة فيها

وإذا كانت الفتاة قد لجأت الى المواخير كما يقول الفريد دى ميسيه لتأكل بثديها ، وتلتقى هناك بمن منع على نفسه أن يكون قيما عليها فأصبح مستثمراً لشقائها ، فانها لم تلبث أن تعودت إذلاله لها فى عرضها فلجأت الى العمل لتأكل بعرق جبينها احتفاظاً على الأقل بحق اختيارها للرفيق الموقت أو بحق التمرد على أنوثتها الكاسرة من عزتها ، وهكذا بعد أن كان الفتى يلقى الفتاة التى تحول عنها فى المواخير ليذلها ، أصبحت هى تلاقيه فى ميادين الأعمال لتزاحمه متململة من إذلاله

سوف يأتى يوم وهو غير بعيد تنتبه المدنية فيه الى أن الرجل الكامل الذى ينشده العلماء فى الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص الخلايا بالمجهر حتى ولا من التلقيح بالمواد الكيميائية أو غدد القرود ، فيتحققون أن الرجل المتفوق إنما هو ابن الحب الصحيح ؛ فالمحبة وحدها هى السبيل الى إدراك الحق والقوة والجمال

لندع العالم المتمدن يفتش بعلومه ونهضته على هذا الحب الذى تخيله كارل ماركس متجلياً فى الحرية التامة للناس فى أهوائهم فجاءت روسيا البلشفية تثبت انخداعه فى نظرياته ، ليقتنعوا أنهم لن يتوصلوا فى تجاربهم إلا إلى العبر الزاجرة المؤلمة

أما نحن أبناء هذا الشرق العربى الذى انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالالهام لا تلمساً من الخارج ، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاهتداء والخروج إلى النور بعد هذا الليل الطويل ، إذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق الينا

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ، ولا بجعل البلاد جنة فى أرضها غنى وتنظيما ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد

إن الجنين الذى يحمل أسباب شقائه وهو فى بطن أمه لا يمكنه أن يصير رجلاً حراً قوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتع بالعظمة الكامنة فيها

إن الاهتمام بإيجاد الطفل الصالح أولى من العمل لأعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتنحطم كل محاولة نصرفها للنفوذ إلى علته المستقرة فيه منذ تكوينه

ليس الفقير المتسول ، ولا العليل المتألم ، ولا الشيخ الهرم يتمشى بلا عزاء إلى قبره ؛ ليست المرأة المستعبدة بلقمة ، ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير ؛ ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء فى الحياة بأشق من الأطفال يجور عليهم الآباء والأمهات قبل أن يقذفوا بهم إلى الوجود ثم يرهقوهم بالقطيعة والاهمال حين يدرجون على الأرض بأقدامهم الناحلة المرتجفة

الرجل الذى يمسخ حبه شهوة ، والمرأة المتقصفة المتهتكة التى تجعل هيكل نسمات الله مركماً لنفايات البشر من عباد الخيانة والطيش ، إنما هما آدم وحواء مطرودين من الجنان إلى أرض الجهود المضيعة والآلام المحتمة . ومن يدرى أن حديث معصية الأبوين الأولين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيانة التى تنزل اللعنة بمرتكبيها وبأبنائهم من بعدهم

* * *

إن هذه الحقائق التى استجليناها من قاب الحياة تملى علينا المبادىء التى يجب أن نأخذ بها لتوجيه المرأة للخير العام

إننا ، ولا ريب ، تجاه نهضة نسائية تبشر بارتقاء قريب ، ولكن هذه النهضة مقصورة على عدد قليل من السيدات اللواتى لم ينخدعن بمظاهر المدنية الفرارة فأدركن أن المرأة المترجلة الضلول ليست هى من نرجو لاحياء الأسرة وخلق الأمة الحية

الظلمات كثيفة ، والمشاعل قليلة ، ولكن هذه المشاعل كفيلة إذا رفعت بانارة نساء اليوم ونساء الغد وإرشادهن إلى ما ثوى فيهن من فطرة شرقية سامية

ليس كالمرأة من يصلح المرأة أو يفسدها . فليذهب صوت المرشدات متغلغلاً فى كل طبقات الأمة مهيباً بنسائها إلى النهوض . وليست النهضة التى نرجوها للخير العام بين النساء مما يستلزم الوقت الطويل ، لأنه إذا كانت نهضة الرجال فى أمة تقتضى تحصيل العلوم بأنواعها وفروعها سياسية وإدارية وصناعية وزراعية وفلسفية ، وتستلزم لبلوغ هذا الغرض امرار السنين الطوال درساً وتفكيراً ، فليس الحال على هذا المنوال فى إنهاض المرأة

نهضة الرجل فكرية عملية ، أما نهضة المرأة فاحياء إيمان وإشعال عاطفة . وقد لا تحتاج نساء بلدة لأكثر من خطب معدودة تلقيها امرأة ملهمة على عليها الحق الأعلى ما تقول ، فتخلق من كل فتاة زوجة صالحة ، ومن كل زوجة أماً رؤوما

إن الشريعة فى هذا الشرق العربى إنما هى وحى من السماء لخير المجتمع فى مختلف الأحوال والعصور ؛ ولشرعة الزواج بخاصة فى هذه البلاد ما ليس لأى قانون ابتدعه الناس فى سائر العمور من حكمة ومرونة ، فهى عقد فيه للجاهلة المنحطة روادع وقيود ، وللمستنيرة الراقية الفاضلة مجال رحب يمتد فيه حقها قدر استحقاقها

الحق استحقاق وليس هبة ؛ وما ظلمت نساء الشرق فى أدوار انحطاطه إلا لقصورهن عن نيل هذا الحق

أما وقد آذنت الساعة بالنهوض ، وقيض الله لمصر والشرق العربى من يرى إصلاح المجتمع بتساوى أهمية وإصلاح الهيئات الحاكمة فيه ، فقد حق على النابهين رجالاً ونساء أن يؤدوا رسالة الاصلاح لاحياء الأمة واستعادة مجدها

فلنستثمر إذن نهضة الناهضات فى سبيل الخير العام لأقالة الأسر من كبواتها على الأسس الآتية :

١ — إحياء شعور المرأة بقداسة رسالتها ، فتحس بأن لها شخصية مستقلة يسودها الانتخاب الطبيعى للرفيق مترفعاً عن كل استهواء للمطامع والشهوات المضالة . إن أشقى الناس من ضعفت شخصيته إلى درجة التردد فى اختياره ، وأذل فتاة فى الحياة من تقف حائرة بين طلابها فتنصب ميزان الترجيح ذاهبة مع الاعتبارات الفانية للتحكم بالحوافز الخفية العالقة بأهداب الخلود

٢ — تمكين عقيدة المرأة فى أن حريتها كامنة فى عبوديتها (لاشتياقها) كزوجة وكأم ، وإن انعتاقها من هذه العبودية إنما هو كفر بربها وبذاتها

٣ — تفهّم سيادة الرجل القوام على المرأة على ما قصده الشرع من تأمين الحاجة والرعاية والصيانة ، فلا تؤول كما يحلو لبعض الرجال تأويلها بأنها تحكم وإرهاق واستبداد بالشخصية التي خلقها الله فأودعها إرادته . إن من يفهم السيادة تحكما بالذات لا خدمة لها إنما ينصب نفسه قواماً على فضل الله وقدره

٤ — إقصاء المرأة عن كل عمل يقصيها عن واجباتها ، إذ لا بد لكل مجتمع تترجل نساؤه أن تتأنث رجاله ، وليس برجل من لا غيرة فيه

٥ — أن تتيقن المرأة أن قسطها أوفر من قسط الرجل في تكوين رجال الأمة ، لأنه وإن تساوت وإياه بتكوين جسم الجنين من ذرات متساوية قيمة وعدداً ، فان أثر شخصيتها فيه ليفوق أثر شخصية الرجل ، فهي المستودع والمرضع والمربي الأول

٦ — أن تعلم المرأة ويعلم الرجل قبلها أن إقامة أسرة على أنقاض أسرة إنما هو من قبيل البناء على الرماد ، وما يصلح الرماد أساساً يثبت عليه أيّ بناء

٧ — أن تثق الفتاة من أن طهارة روحها وعفاف جسمها إنما هما الركن الذي يبنى الرجل سعادته عليه ، فتحرص على هذا العفاف لأن عثرته حتى في زواج خاطىء عثرة لا تقال ؛ وقلما ترى امرأة خرجت ظالمة أو مظلومة من بيت مهدّم وتمكنت من بناء بيت جديد لا تساوره الأشباح ولا تدور في زواياه الخفية الوساوس والشكوك

٨ — أن ينتبه رجال الشرع إلى ظاهرة خطيرة في أحوال الأسرة المصرية وهي ظاهرة الطلاق بنسبة مروعة تدل على ضعف العقيدة الدينية وعلى انحطاط في الأخلاق ، وكلاهما نذير الدمار

٩ — أن تعمل المصلحات النابهات بخاصة على إيجاد حضارة واحدة تتبعها نساء مختلف العناصر المكوّنة للوطن ، إذ لا معنى لهذا الاختلاف في حياة الأسر التي تتفق كتبها السماوية على تنظيم الحياة بالمبادىء الأدبية العليا

إن لم يقم المجتمع على عادات وتقاليد وأزياء واحدة ، فان إقامة الوطن على مثل هذا المجتمع المختلط لمن أصعب الأمور . وما تجتمع النساء في بلادنا من عديد الطوائف إلا بين طبقة معلومة اقتبست من المدنية الغربية ما يضج منه عقلاؤها ، وليس الاتحاد الذي ننشده بين الأسر ما نرى فيه نساءنا الشرقيات من كل طائفة عاريات على الشواطىء أو نصف عاريات في المقاصف والمراقص .

إن وحدة العادات والأخلاق التي نصبو إليها إنما تقوم على الحرية المصونة التي تبيح للمرأة المباهاة بفكرها ومزاياها الشريفة وتصدها عن المباراة بجمالها وعواطفها وهما نور بيتها الذي يجب ألا يوقد إلا بين جدرانه

على هذه المبادىء تعم النهضة نساء البلاد فتنشأ الحضارة الخاصة الملائمة لهذا الشعب ؛ وما تسعد أمة تقتبس أساليب حياتها مما يتنافر وحوافز دمها وصوت القبور في روحها

كل إنسان يجبن أمام الحوادث في حياته فيلين لها حوافزه وفطرته إنما هو الشخصية المفقودة التائهة والشبح الباكي والحيّ المستحجر ؛ وقد تلمع أحداق مثل هذا الانسان بالمجد والظفر ، ولكن أنوار السعادة تبقى منطفئة في عينيه

ونحن كأمة لا يمكننا الانفلات من هذا الناموس الثابت . إن فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا ؛ وكل أمة تحيا على غير فطرتها فهي أمة باكية بدموع صامتة ، هي أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة فيها

نحن بحاجة إلى نهضة روحية أدبية تصلح منابت أطفالنا بعقيدة يحييها النابهون في الشعب تحت جنح إعانة الشرق المكين ، وليس كالعقائد في شعب ما يكفل كرامته ويضمن استقلاله

بين بعض قبائل الصحراء عقيدة أصبحت فطرة في أفرادها ، وهي اعتبار الكذب عاراً دونه أي عار ، فاذا ما ارتكب الكذب أحد أفراد القبيلة اضطر رئيس أسرته إلى قلع أطنابه والهرب بنسائه وأطفاله إلى بعيد حيث يوارى في النفي الأبدي ما التصق به من عار

إلى خلق مثل هذه العقائد يجب أن تتوجه جهود الناهضات من النساء فيصبح الرأي العام سياجاً حرامه الزراية والاحتقار ، يصد كل امرأة تقصر عن المحافظة على حقها أو تطمح إلى تجاوزه ، وتصد كل رجل يقصر في واجباته كقوام على المرأة أو يسيء استعمال هذه الواجبات . وهكذا يساق الرجل إلى معاملة زوجته كما يريد أن تعامل ابنته في زواجها

إن عقائد الأمم الاجتماعية إنما تحفظها صدور النساء قبل صدور الرجال ، وتنبيه مثل هذه العقائد والتقاليد في فطرة بنات الشرق لعمل يسهل على رسولات الحق إذا عضدتهن السلطات الزمنية والروحية في هذا السبيل

(تم البحث) فليكس فارس